

الدرس الرابع

من مشاهد يوم القيامة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ (إبراهيم: ١٩-٢٣) .

تحدثت السورة عن مواكب الأنبياء، وكيف وقف منهم أقوامهم، وكيف كذبوهم، وكيف نزلت بهم نقمة الله عز وجل، وكيف يرى مصير الجبابرة في الآخرة، والنار تحيط بهم من كل جانب .

ثم بعد هذا نقف عند هذا المشهد الجديد من مشاهد يوم القيامة، وما أروع مشاهدتها، وما أعظم صورها؛ حيث يقول الله عز وجل قبل الحديث عن مشهد الآخرة يقول في هذا التمهيد: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ (إبراهيم: ١٩، ٢٠)، ثم يقول: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا . . . ﴾ إلى آخره .

التفكر في خلق السموات والأرض بالحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

هذا خطاب لكلِّ مَنْ يتأتى خطابه ، يقول فيه : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، وهذا استفهام كما يقول عنه علماء اللغة : استفهامٌ تقريرى ، دخول الهمزة على حرف النفي : (لم) كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح: ١) ، فكأنه يقول له : لقد شرحنا لك صدرك .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أي : لقد رأيت أن الله خلق السموات والأرض بالحق .

كلمة الرؤيا في القرآن :

والرؤية هنا رؤية علمية نظرية ؛ لأن كلمة رؤيا في القرآن أحياناً تكون رؤيا بصرية ، وأحياناً تكون رؤيا حلمية منامية ، كما قال الله على لسان الملك : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف: ٤٣) .

وقوله عز وجل على لسان سيدنا يوسف : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤) ، فهذه رؤيا منامية .

وهناك الرؤيا العلمية : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، يعني هذا يفيد النظر العقلي .

خلق السموات والأرض بالحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، ألم تنظر وتأمل بعقلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ، خلق هذا الكون علويّه وسفليّه بالحق لا بالباطل ، خلقه لغاية حكيمة ،

فلم يخلق الله تعالى شيئاً عبثاً ، ولا شيئاً باطلاً ، كما حكى الله تعالى عن أولي الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِيْلًا سُبْحٰنَكَ ﴾ (آل عمران: ١٩١) ، لم يخلق الله شيئاً باطلاً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِيْلًا ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوْا فَوَيْلٌ لِّلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنَ النَّارِ ﴾ (ص: ٢٧) .

لم يخلق الله السماوات والأرض ولا شيئاً فيهما باطلاً ولا لهواً ولا لعباً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا اِلَّا بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ (الدخان: ٣٨، ٣٩) ، ﴿ وَخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴾ (الجنائفة: ٢٢) .

الحياة الآخرة حقٌ :

من هذا الحقٌ : أن هذا الكون لا يَفْنَىٰ فناءً صِرْفًا ، بحيث لا يكون بعده حياة أخرى ، ويذهب الظالمُ بظلمه ، والقاتلُ بقتله ، والطاغيةُ بطغيانه ، ولا ينال جزاءهُ ، كما يذهب الخيرون بخيرهم ، الذين لم ينالوا عليه أجرًا في الدنيا ، بل ربما كان جزاؤهم : الاضطهاد والإيذاء .

لا بد أن تكون هنالك حياة أخرى تُوفَىٰ فيها كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ ، وتُجْزَىٰ بما عَمِلَتْ ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) ، هذا معنى الحق الذي خُلِقَتْ به السماوات والأرض ، والذي قامت به السماوات والأرض .

الله هو الذي خَلَقَ هذه السماوات والأرض ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ اَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾

(غافر: ٥٧) .

قدرة الله سبحانه على إذهاب الخلق والإتيان بخلق جديد :
﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

هذا الخالق العظيم الذي لا يُعجزه شيء ، ولا يحدُّ قدرته حدٌ ، يستطيع إذا خالفتم أمره ، وانحرفتم عن نهجه ، وبعُدتم عما خَلَقَكُم لأجله ، وقد خلقكم لعبادته ، وخلقكم لتعرفوه ، يستطيع الله عزَّ وجل أن يذهب بكم ويأتي بخلق آخر :
﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ، إذهابكم وإزالتكم ومحوكم من الوجود ، ثم الإتيان بأخرين أفضل منكم ، يستطيعون أن يقوموا بما خلقهم الله له ، يقومون بعبادته وبخلافته في الأرض ، وبعمارة الأرض التي سخرها الله لهم ، ليس ذلك على الله بعزيز .

المراد بالخلق الجديد :

وهذا الخلق الجديد ، هل هو خلق غير هذا النوع من الآدميين الذين لم يقوموا بما أحلَّ الله لهم ، وما أمرهم به؟ أو يأتي بنوع من الآدميين أفضل من هذا النوع؟ كلُّ هذا واردٌ ، وقد قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ^ط وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (فاطر: ١٥، ١٦) .

قدرة الله سبحانه على تغيير الخلق :

﴿ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

أي : ليس بعظيم ولا ممتنع ولا متعذر على الله سبحانه : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿ (النساء: ١٣٣) ، وكقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨) ، وكقوله : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا مَن يَزِنْدَ مِنكُمْ عَن دِينِهِءِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ؕ أَدِلَّةٌ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴿٥٤﴾
(المائدة: ٥٤) .

الله سبحانه قادرٌ على أن يُذهبَ هذا الخلقَ ، ويأتي بخلقٍ آخر غير الجنس
الآدمي ، أو يذهب بهذه المجموعة من الناس من بني فلان أو بني علان ، أو من
الشعب الفلاني الساكنين في الأرض الفلانية ، ويأتي بشعبٍ آخر ، كلُّ ذلك داخلٌ
في إطار القدرة الإلهية ، وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله عزَّ وجلَّ .

مناقشة الإمام الغزالي :

وهنا تأتي مناقشة مع الإمام الغزالي رحمه الله ، حيث قال في كتاب التوكل من
كتاب (إحياء علوم الدين) : « إن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل
أعقلهم ، وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم
من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ،
ثم كشف عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق
اللطف وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم
أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت ، بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى
تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه ، أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في
الدنيا والآخرة جناح بعوضة » .

ويقول : « ليس في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل »^(١)

فهو يقول : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ليس في الإمكان أن يُخلق كون
أفضل من هذا الكون ، لأنَّ الذي دبره وأحسن تدبيره ، وقدر فيه كل شيء أحسن

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٥٨ ، ٢٥٩) ، دار المعرفة ، بيروت .

تقدير ، وكل شيء فيه بقدر : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢) .
 ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ (السجدة: ٧) . ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) . ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾
 (آل عمران: ١٩١) . لا يوجد أفضل من هذا .

« ولو كان وأدخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله ، لكان هذا بخلاً يناقض الجود ،
 وظلمًا يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا ، يناقض الإلهية » .^(١)

هذا الكلام قاله الإمام الغزالي في كتاب : (التوكل) من (الإحياء)^(٢) ، وناقشه
 بعض المتأخرين من العلماء وقالوا : إن في هذا تحديداً لقدرة الله ، وأن قدرة الله
 لا يمكن أن يحدها شيء ، واستدلوا عليه بهذه الآيات : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
 بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ ، ويقوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨) .

والكلام فيه مناقشة طويلة : هل هذا في التغيير الجزئي ، أم التغيير الكلي؟ هل
 يخلق كونًا آخر ، أم يستبدل قوماً غيركم ويأتي بخلق جديد ، ولكن الكون هو هو
 بما فيه؟!

يبدو أن هذا الكلام صحيح بأن الكون هو هو ، ولا يمكن أن يبدع كونٌ أفضل
 من هذا الكون ؛ لأن الله أحسن فيه كل شيء خلقه ، وأبدع كل شيء أعظم إبداع ،
 ووضع كل شيء في موضعه ، وليس فيه أمرٌ اعتباطيٌّ ، ولا أمر عبثيٌّ :
 ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ (المؤمنون: ١١٥) ، ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوًا
 لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٧) ، يعني : ما كنا فاعلين ، ﴿ بَلْ

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٥٨ ، ٢٥٩)

(٢) في بيان حقيقة التوحيد (٤/٢٥٨ ، ٢٥٩) .

نَقَذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿ (الأنبياء: ١٨) ، ﴿ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿ ﴿ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ .

ثم جاء المشهد الأخروي الذي يعضده القرآن ، فيقول : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿

حوار بين الضعفاء والمستكبرين يوم القيامة :

انتقلنا من الدنيا إلى الآخرة ، من الكفرة المكذبين وتهديدهم لرسولهم حين قالوا لهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿ ، إلى دارٍ أُخْرَى لَهَا قَوَانِينُهَا ، ولها نظامها ، ولها مَلِكُهَا وحاكمها .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿

البروز يعني : الظهور والانكشاف ، ظهر الجميع أمام الله ، وانكشف الجميع أمام الله ، لا يوجد ساترٌ يستر ، ولا حاجزٌ يحجز ، ولا غطاءٌ يغطي ، ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿ (غافر: ١٦) .

لم يعد هناك أحدٌ يدعي الملك ، في الدنيا ملوك يدعون : أَنَّ الْأَرْضَ أَصْبَحَتْ مِلْكًا لَهُمْ ، وَأَنَّ السُّلْطَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ ، وَيَحْكُمُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ ، وكأنما لهم شيء .

في الآخرة زال ملك هؤلاء جميعًا ، وبقي الملك للملك وحده : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿ (غافر: ١٦) ، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿ (الانفطار: ١٩) .

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، انكشفوا ، بُلِيَّتِ السرائر ، وأصبح كلُّ شيء مكشوفًا ، حتى أصبح الناس يحسُّون بكلِّ شيء : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢) ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (مرم: ٣٨) .

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ : السادة الكبراء ، والفقراء والضعفاء ، المتبوعون والتابعون ، المحكومون والحاكمون ، وشيطانهم الأكبر الذي أضلَّهم ، كلُّ هؤلاء ظهرُوا ، برزوا لله جميعًا .

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

قال ضعفاء الرأي والفكر من الأتباع للقادة المستكبرين : كُنَّا فِي الدنْيَا أَتْبَاعًا لَكُمْ ، نَأْتِمِرُ بِأَمْرِكُمْ ، نَسْتَمِعُ لِقَوْلِكُمْ ، نَنْتَهِي بِنَهْيِكُمْ ، تُدِيرُونَ أُمُورَنَا كَأَنَّا قُطْعَانٌ مِنَ الْأَنْعَامِ ، كُنَّا تَبَعًا لَكُمْ : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾؟! السيادة التي كانت لكم في الدنيا هل نرى لها أثرًا في الآخرة؟! العظمة والهيكلان الذي كنتم فيه من قبل ، أين هو الآن؟! هل أنتم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ!؟

تبرُّؤ الأتباع من المتبوعين :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ ﴾

لا نستطيع أن نُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ، ربما كانوا في الدنيا يَعِدُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُخَفِّفُوا عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ الْبَلَاءَ ، أَوْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

كلُّ هذا ليس له أيُّ صَدَى وَلَا أَيُّ أَثَرٍ ، كما حكى القرآن قصَّة الأتباع والمتبوعين والتي تَكَرَّرَتْ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ

اتَّبِعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرًا مِثْلَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾ .

وفي آيات أخرى في سورة الأعراف : ﴿ قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَتُّوْلَاءِ ﴾ أي : السادة الكبراء ، ﴿ أَضَلُّوْنَا فَنَاتَّبَعْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٨) .

وفي سورة الأحزاب : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّوْنَا السَّبِيلَا رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِّنَ الْعَذَابِ وَالْعَهْدِمْ لَعْنَا كَبِيرَا ﴾ (الأحزاب: ٦٧، ٦٨) .

وفي سورة سبأ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٣١-٣٣) ، وهكذا يتلاومون ويتبرأ بعضهم من بعض ، وكلُّ هذا بعد دخولهم إلى النار ، بعد أن ذاقوا العذاب ، يلوم بعضهم بعضاً : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٧، ٤٨) ، نحن وأنتم في هذه النار ، في هذا العذاب : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ ، هكذا الأتباع والمتبوعون .

وليس للأتباع عذرٌ أن يسيروا وراء هؤلاء الكبراء والسادة المضلّين ؛ لأنّ الله أعطاهم عقولاً يفكّرون بها ، أعطاهم ملكات ، أعطاهم إرادةً يرجّحون بها ، لماذا تنازلوا عن عقولهم؟!

لماذا تنازلوا عن إنسانيتهم وساروا وراء هؤلاء ، ومَشَوْا في ركبهم أتباعاً؟!

لماذا يُصبح الإنسان ذليلاً وقد خلقه الله رأساً؟!

لماذا يرضى لنفسه أن يكون عبداً وقد خلقه الله حُرّاً؟!

لماذا رضيتُم أن تكونوا أتباعاً؟!

لماذا لم تبغوا سادة أنفسكم؟!

وقد قيل : (كُنْ رَأْسًا لِكَلْبٍ وَلَا تَكُنْ ذِيلاً لِأَسَدٍ) . لا تكن ذليلاً لأحد .

لكن هؤلاء رضوا أن يكونوا ذيولاً لغيرهم ، ولا عذر لهم في أتباع هؤلاء الكبراء .

ذَكَرَ الْقُرْآنُ قِصَّةَ هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعِ ، وَبِرَاءَةِ الْمُتَبَوِّعِينَ مِنْهُمْ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِيَسَارِعُوا وَيُحَرِّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْغَيْرِ .

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، ربما فهموا أنهم كانوا يَقْدِرُونَ على ذلك ، وربما وعدوهم بذلك وعوداً كاذبة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٢) ، لا بالعكس ، بل يحملون خطاياهم وخطايا الذين أضلّوهم ، ﴿ وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ١٣) .

لا يحمل أحدٌ ثقل أحدٍ في الآخرة ، كلٌ واحدٍ يحمل عبء نفسه ، ويحمل وزر نفسه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام: ١٦٤) ، لكن المضلّ يحمل وزر

إضلال الآخرين : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨) .

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ
مُغْنُونَ عَنَّا مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، أي شيء؟ أي تخفيف؟

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ، نحن واقعون في الضلال ، لا نستطيع أن
ننقذ أنفسنا ، فهل نستطيع أن ننقذكم؟! ما لكم من منقذ ، وما لكم من مهرب ، أنتم
تحملون وزر أنفسكم : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ
إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴾ (الصفات: ٣٢) ، غَوِينَا فَأَغْوَيْنَاكُمْ ، وَضَلَّلْنَا فَأَضَلَّلْنَاكُمْ ، ولو هَدَانَا
الله لَهَدِينَاكُمْ ، ولكن بَعُدُوا عن الهداية .

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ، الآن يعترفون بهداية الله ، وبعظمة الله ، وبأنه
قادرٌ على أن يهدي مَنْ يشاء ، ولكن اعترافهم في ذلك الوقت لا يُجدي ؛ لأنه
اعترافٌ بعد فوات الأوان . ولذلك قالوا :

لا مفرًا من عذاب الله للأتباع والمتبوعين :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ .

ما لنا من مفر ، ما لنا من مهرب ، ما لنا من ملجأ ولا منجى ، ما لنا من
محيص ، جزعنا أم صبرنا ؛ لأن الصبر الذي يُجدي وينفع ، إنما يكون في الدنيا
في وقت التكليف ، أما في الآخرة فليس فيها تكليف لا ينفع فيها الصبر ، الصبر
ينفع في أوان الصبر ، أما إذا فات الأوان فهيهات هيهات ، لا نفع له ولا جدوى منه ،
ولذلك قال : ﴿ أَصَلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور: ١٦) ، هم قالوا لأنفسهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ ، ما لنا من خلاص ، ولا من مهرب ، ولا من نجاة مما نحن فيه .

الشیطان یخطب فی جهنم :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

هكذا نرى هذا التهاوش والتجادل بين الضعفاء وبين سادتهم المستكبرين ، ثم قام زعيم الإضلال الأكبر ، قام الشيطان الذي أضل هؤلاء وهؤلاء ، قام خطيباً في جهنم ، قام ليبريئ نفسه ، وليحملهم المسئولية ليزدادوا غمًا على غم ، وحسرة على حسرة ، وحزنًا على حزن .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ، لما فرغ الله من حساب الخلائق ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وأصبحوا في العذاب ، قال الشيطان في هذه الحالة لما قضي الأمر ، واجتمع عليه أهل النار موبخين له ، يطلبون منه العون بعد أن أضلهم ومناهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ .

وعد الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ على السنة رسله ، وعدكم أن من آمن به وبرسله وأطاعه وسلك منهجه ؛ سعد في الدنيا وفي الآخرة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧) .

وَمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَجَحَدَ رُسُلَهُ ، وسار في طريق الشرِّ والضلال ، فلا بد أن يلقي جزاءهُ ، هذا منذ أنزل الله آدم وحواء إلى الأرض ، قال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

(طه: ١٢٣-١٢٦).

هذا هو منهجُ الله ، واضحٌ منذ نزول آدم إلى الأرض ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ ﴾ ، وبيَّن ذلك فيما أنزل من كتب ، وفيما بعث من رسل ، وظهرت الحقائق لكم .

وعد الشيطان :

﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (النساء: ١٢٠) .

﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ ، وهذا يدلُّ على أن إخلاف الوعد من أخلاق الشيطان ، ولذلك على المؤمنين إذا وعدوا ألا يخلفوا حتى لا يتشبهوا بالشيطان .

وقد جاء في الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »^(١) والمؤمنُ غير ذلك ، إذا حدث صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا عاهد وفَّى .

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (٨٦٨٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١) عن أبي هريرة .

ليس للشيطان سلطاناً على الإنسان إلا الوسوسة :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ اِلَّا اَنۡ دَعَوْتُكُمْ فَاٰسْتَجَبْتُمْ لِيۡ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ ﴾ ، لم يُعطني الله القدرة على أن أتَحَكَمَ فيكم ، أو أُغَيِّرَ من خَلَقَتكم ، أو أزيل عقولكم ، أو أُغَيِّرَ في أجسامكم ، كما يظنُّ بعض الناس : أن الجنَّ يمكن أن يتَحَكَمَ في الإنسان ، ويتكلَّم على لسانه ، ويزيل عقله .

ظاهر القرآن يخالفُ هذا ، ليس للشيطان سلطاناً على الإنسان ، ما كان له من سلطان إلا الدعوة ، الوسوسة في صدور الناس ، ليدعو الناس بطريقته ، طريقة الوسواس الخناس الذي يتسلَّل إلى النفوس ليُغويها وليُضلَّها بالتزيين : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا اَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ وَلَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩) ، ﴿ وَلَا ضَلٰلَتُهُمْ وَلَا مَيۡنَتُهُمْ وَلَا مَرۡنَتُهُمْ فَلَيَبۡتَغُنَّ اِذَا نَبَّ الْاَتَعَمِرِ وَلَا مَرۡمَتُهُمْ فَلَيَغَيِّرُنَّ خَلۡقَ اَللّٰهِ ﴾ (النساء: ١١٩) .

كلُّ هذه الطرق التي يتَّخذها : طرقٌ خَفِيَّةٌ ، ويعتمد فيها على استجابة الإنسان ، هناك إنسانٌ يرفض وسوسة الشيطان ، ويعتصم بالله عزَّ وجلَّ ، هؤلاء هم عباد الله المُخْلِصُونَ الذين قال الله فيهم : ﴿ اِنَّ عِبَادِي لَیۡسَ لَكَ عَلَیۡهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَفٰیۡ بِرَبِّكَ وَاَكۡبٰرًا ﴾ (الإسراء: ٦٥) .

والشيطان نفسه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِينَ ﴾ (١٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿ (ص: ٨٢، ٨٣) ، هؤلاء لا يستطيع أن يفعل فيهم شيئاً : ﴿ اِنَّهُ لَیۡسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلٰی الَّذِیۡنَ ءَامَنُوۡا وَعَلٰی رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوۡنَ ﴾ (١١) اِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلٰی الَّذِیۡنَ يَتَوَلَّوۡنَهُ وَالَّذِیۡنَ هُمۡ بِهٖۡ مُشْرِكُوۡنَ ﴿ (النحل: ٩٩، ١٠٠) .

سلطانُ الشيطان على عبيدِ الشيطان ، الذين أصمُّوا آذانهم عن سماع الحقِّ ، واستمعوا إلى وسوسة عدوهم ؛ الذي طالما حدَّتهم الله تعالى منه : ﴿ اِنَّ الشَّیْطٰنَ

لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿فاطر: ٦﴾ ،
﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٦٩) .

ولكن هناك مَنْ يستجيب لدعوة الشيطان ولوسوسة الشيطان ولإغواء الشيطان :
﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۗ فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) .

سلطان المخلوق على آخر ، إما بالقهر والقوة ، وإما بالخداع والحيلة ،
والشيطان ليس له قوَّة ولا قدرة على الإنسان .

أوهام بعض الناس عن الجن :

بعض الناس يظنُّ أن الجنَّ عنده من القدرة ما يستطيع أن يُسخرَ به الإنسان ،
وهذا ليس بصحيح ، القرآنُ حكى لنا : أن الإنسان عنده من القدرة ما يستطيع أن
يسخرَ به الجن .

رأينا هذا في قصة سيدنا سليمان ، سخرَ الله له الجن : ﴿ وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ
وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴾ (ص: ٣٧-٣٩) .

ولكن لم نرَ جنياً سخرَ إنسياً ، لم يحك لنا القرآن ذلك ، الإنسان عنده قدرة
كبيرة ، انظر ماذا قال العفريت من الجن : ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ ۗ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٩) .

وقال آخر - والظاهر أنه من الإنس - : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا
ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠) ، بواسطة العلم استطاع أن يأتي
بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر .

مكايد الشيطان ومداخله على الإنسان :

فالشيطان لا يستطيع بالقهر والقوة أن يتسلط على الإنسان ، إنما يستطيع بالخداع والحيلة ، بوسوسة الصدور ، يوسوس لبعض الناس فيغيرهم بالمعصية ، وبالعودة عن الطاعة ، كما قال الله تعالى على لسان إبليس : ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَنُّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ ، من كل الجهات ، يعني أزهدهم في الآخرة ، وأرغبهم في الدنيا ، وأغريهم بالسيئات ، وأبعدهم عن الحسنات ، يأتي من كل الجهات : ﴿ وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧) .

استجابة أكثر الناس لوسوسة الشيطان :

والله سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ: ٢٠) ، والواقع : ضلَّ أكثر الناس : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣) . ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (سبأ: ١٣) ، استطاع إبليس بوسوسته ، بطرقه الخبيثة ، بطرقه الخفية أن يتسلل إلى النفوس الضعيفة التي لم تستمسك بالعروة الوثقى ، ولم تهتد بهدى الله ، ولم تستتر بنور الله عز وجل ، استطاع أن يؤثّر فيها .

براءة الشيطان من المستجيبين لدعوته :

﴿ فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

﴿ فَلَا تَلُمُونِي ﴾ ، لا تجعلوا كل اللوم عليّ ، ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، اللوم عليكم أنتم ، فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم باختياركم الحر! الذنب ذنبكم ، كما

يقال في المثل : (ذنبك على جنبك) . أنت الذي أتبعنتني ، أنا أجبرتك؟! أنت عندك عقلك ، تركته ، عندك نور ، وأهملت هذا النور ، عندك هداية إلهية ، أهملتها .

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾

أي : ما أنا بمنقذكم مع أنني أسمع صراخكم واستغاثتكم ، لست بمغيثكم ولا بمنقذكم ، كما أنكم لستم بمنقذي ، لا يستطيع أحدٌ منا أن ينفع الآخر في هذا اليوم العظيم ، الذي يكون فيه كلُّ إنسانٍ مُعلّقٍ من عُقوبه - كما يقال - كل إنسانٍ مسئولٌ عن نفسه ، لا يحمل أحدٌ وزرَ أحدٍ في هذا اليوم ، الشيطان الذي أغراهم وغرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُغْنِيكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ ﴾ (لقمان: ٣٣) ، والغرور هو الشيطان ، غرهم وأغراهم وزين لهم ، وسؤل لهم ما سؤل ، برئ منهم كما برئ بعضهم من بعض ، كما برئ السادة من الأتباع .

كفر الشيطان بالشرك والمشركين :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾

أنا كفرت بهذا الشرك ، كما قال تعالى عنه : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحشر: ١٦) ، كفر بالشرك بالله ، وإبليس لم يكن مشركاً بالله لأن إبليس معترفٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) .

معترف بأن الله خالقه ، قال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٢) ، فما كان مشركاً ، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، الإشراف هذا أنا كفرت به من قبل . ثم علل تبرؤه :

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إيليس نفسه يعترف بأن الظالمين لا بد أن يلقوا عذابهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) .

الظالمون لا بد أن يلقوا جزاءهم في الدنيا وفي الآخرة ، فإن أفلتهم جزاء الدنيا
فلن يفتلوا من جزاء الآخرة : ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، معد لهم ،
ينالونه بما كسبت أيديهم ، لا بظلم من الله تعالى لهم ، إن الله حرّم الظلم على نفسه ،
ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ، في يوم القيامة ، لا يخاف أحدٌ ظلماً ولا هضمًا ،
لا يخاف أحدٌ أن يظلم وأن يُحمّل سيئات غيره ، ولا تهضم حسناته ، بل سيأخذ
جزاء حسناته : ﴿ فَلَا تَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه: ١١٢) .

دخول المؤمنين الجنة :

﴿ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

أهل النار دخلوا فيها يتلأومون ويتلاعنون ، ويلقي بعضهم اللائمة على بعض ،
ويبرأ بعضهم من بعض ، ويبرأ الشيطان منهم جميعاً ، وأهل الجنة أدخلوا الجنة ،
أدخلهم الله الجنة ، أو أدخلتهم الملائكة الجنة ، قالت لهم : ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ
ءَامِينَ ﴾ (الحجر: ٤٦) ، ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣) .

ارتباط الإيمان بالعمل الصالح :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، لم يكن مجرد إيمان لا أثر له ،
ولكن إيمانهم كان له أثره في عمل الصالحات ، فهذا هو الإيمان النافع .

« ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل »^(١) .

مدلول كلمة الصالحات في القرآن :

﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، الذين آمنوا بالله ورسوله ، الذين وقفوا عند حدود الله وعملوا الخلال الصالحات المرضيات عند الله ، وكلمة الصالحات : كلمة من الكلمات القرآنية الجامعة ، كلُّ ما يصلح به دينهم ، وتصلح به دنياهم ، كلُّ ما تصلح به أرواحهم وتصلح به أجسادهم ، كلُّ ما تصلح به حياتهم الروحية وحياتهم المادية ، كلُّ ما يصلحون به أفراداً ، ويصلحون به جماعات ، ويصلحون به أمماً ، سواء كانت من صالحات الدين مثل : الشعائر والصلوات والأذكار والدعاء والاستغفار ، أو صالحات الدنيا ، مثل عمارة الأرض ، والعلم النافع من تسخير الكون ومصلحة الإنسان ؛ كلُّ هذه من عمل الصالحات

مراتب المؤمنين في الجنة :

﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾

ثمانية جنّات على حسب منازلهم ومراتبهم ، أعلاها : الفردوس الذي أمرنا النبي ﷺ أن نسأله : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنان ، وفوقه عرش الرحمن »^(٢) .

(١) إشارة إلى ما رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨) ، مقطوعاً عن الحسن البصري .

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٦٣٧) ، وأحمد (٨٤١٩) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠) عن أبي هريرة .

جريان الأنهار :

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، تسبح فيها الأنهار ، العرب لأنهم كانوا في الصحراء ؛ والماء عندهم عزيز ، فَكُونُ الْجَنَّاتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هذا عندهم شيءٌ عظيم ، ولما قال فرعون مصر : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٥١) ، علامة العظيمة ، وعلامة العزِّ والرفاهية ، أن تكون المياه قريبةً منك وفي متناول يدك .

الخلود في الجنّات :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ، ماكثين فيها أبداً ، لم يقعدوا فيها سنةً ولا عشرَ سنين ولا مليون سنة ولا تريليون سنة ، لا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ . وفي بعض الآيات : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ، وإذا لم تُذكر يُحمل هذا على ذلك ، هذا جزاؤهم ، مُخلّدون فيها : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾ (هود: ١٠٨) ، الجنة فيها الخلود الأبدي ، نعيمٌ لا ينقطع أبداً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ، بأمر الله ، بتوفيقه لهم ، بهدايته عزَّ وجلَّ إياهم .

تحية أهل الجنة :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ، التحية في الجنة هي السَّلام ، ولذلك نقول : السلام تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . في الدنيا يُحيي بعضنا بعضاً بالسلام ، إذا لقي بعضنا بعضاً سلِّم عليه : السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وفي الآخرة : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٤) .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ
عُقَى الدَّارِ ﴿ (الرعد: ٢٣، ٢٤).

التحية يوم القيامة سلام ، تحية من الله : ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ ﴿يس: ٥٨﴾ .
تحية من الملائكة : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿
(الرعد: ٢٣، ٢٤) ، ﴿ آذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿ (الحجر: ٤٦) ، ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَّمَ
عَلَيْكُمْ طَيِّبَةً فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ﴿ (الزمر: ٧٣) .

تحية بعضهم لبعض أيضاً : سلام ، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ﴿٥٦﴾ إِلَّا
قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ﴿ (الواقعة: ٢٥، ٢٦) ، التحية سلام من الرب عز وجل ، ومن
ملائكة الرحمن ، ومن المؤمنين بعضهم لبعض .

الجنة دار السلام :

هذه هي الجنة : ﴿ نَجِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ؛ لأن الجنة سلام في سلام ؛ سماها الله
دار السلام : ﴿ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
(الأنعام: ١٢٧) ، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
(يونس: ٢٥) ، دار السلام لأن التحية فيها سلام ، أو لأنها هي سلام ، سلام من كل
خوف ، سلام من كل حزن : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ (يونس: ٦٢) .
سلام من كل غل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُتَقَابِلِينَ ﴾ ﴿ (الحجر: ٤٧) ، ليس في الجنة كراهية ، حتى الأعداء حينما يدخلون
الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۗ وَقَالُوا الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ ﴿ (الأعراف: ٤٣) .

الجنة ليس فيها إلا السلام المحض ، ليس فيها أحزان ، ليس فيها أحقاد ، ليس فيها كراهية ، ليس فيها مخاوف من المستقبل ، أمنٌ مُطلقٌ : ﴿ اَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر: ٤٦) ، هذه هي الجنة .

منهج القرآن في ذكر الوعد والوعيد :

القرآن بعد أن يذكر الوعيد يذكر الوعد ، بعد أن يذكر التهيب يذكر الترغيب ، بعد أن يذكر النار يذكر الجنة ، بعد ذكر المشهد الهائل الرعب الرهيب ، مشهد الذين برزوا لله جميعاً من الضعفاء والمستكبرين ، الذين تبرأ بعضهم من بعض ، ذكر مشهد الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين أدخلوا الجنة .

لماذا يذكر الله الوعيد والوعد والترغيب والتهيب؟! لِنُشِئِ فِي أَنْفُسِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَذَرَ وَالْأَمَلَ ، أو الخوف والرجاء : ﴿ تَحَذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر: ٩) ، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (الإسراء: ٥٧) ، ويتكامل هذان المعنيان في أنفس المؤمنين ، في نفس كل مؤمن ، يكون عنده خوفٌ ورجاءٌ ، لا يغلب عليه الخوف حتى يئس من روح الله : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧) ، ولا يغلب عليه الرجاء حتى يأمن مكر الله : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٩) .

ولكن يكون هكذا بين بين : راجياً خائفاً ، حذراً آمناً : ﴿ تَحَذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر: ٩) ، ﴿ تَبَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠) ، ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٩٨) .

هذا هو منهج القرآن وأسلوب القرآن في التخويف والتأمين والتحذير والتبشير ، والتحريك والتسكين .

يقول الإمام الغزالي في التعليق على قوله تعالى : ﴿ مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (ق: ٣٣) : (عَلَّقَ الخشية باسم الرحمن ، دون اسم الجبار
أو المنتقم ، والمتكبر ونحوه ، لتكون الخشية مع ذكر الرحمة ، فلا تكون الخشية
تطير قلبك بمرّة ، فيكون تخويفاً في تأمين ، وتحريكاً في تسكين .

كما تقول : أما تخشى الوالدة الرحيمة؟ أما تخاف الوالد الشفيق؟ أما تحذر
الأمير الكريم؟ والمراد من ذلك : أن يكون الطريق عدلاً ، فلا تذهب إلى أمن
ولا قنوط^(١) .

هذا هو منهج القرآن الكريم ، وهذا هو المنهج الذي يجب أن نفهمه ونتبّعه : أن
نعيش بين الخوف والرجاء : خائفين من عذاب الله ، راجين رحمة الله عزّ وجلّ .

* * *

(١) منهاج العابدين ص ٢٥٧ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .